التروية واصِداؤها... نداء: فَليرحل معنا! فلْيرْحل معنا!

■ الدكتور محمود واعظي
عميد كلية الالهيات والمعارف الإسلامية بجامعة طهران

يوم التروية بالنسبة للحجاج، هو نداء الرحيل والتوجّه الى المشاعر والمكوث في وادي العشق والحيرة والدعاء والقرب.

وفضلاً عن ذلك، يوم التروية بالنسبة للشيعة هو استحضار لواقعة تاريخية خالدة، حافلة بالدروس والعبرة. هو يوم دعوة الانسان النوراني للانقطاع عن المنصب والمقام، والدنيا، والاسم، والمنافع الشخصية. يوم خروج الامام الحسين سيد الشهداء، برفقة انصاره من مكة متوجهاً الى العراق. ومن ثم حصل واقعة عاشوراء، المأساة التاريخية الخالدة.

وها هي اصداء النداء الذي صكّ اسماع العالم على مرّ التاريخ: "فليرحل معنا". ان التحرك الذي صنع التاريخ، ما فتىء يشغل الاذهان ويستحوذ على الافكار ويدعوها للتأمل والتمعن، ويلفت انظار كل مسلم ـ بمعزل عن الخلفية الفقهية ـ لوعي وإدراك ثمرة اداء الحج واهميته في الاسلام، والمنزلة الفريدة التي تحتلها هذه الفريضة المتميزة وجذبتها المعنوية. ذلك ان مناسك الحج وشعائره ذات جذبة خاصة تهيمن على توجهات كل مسلم، وتمهّد الطريق امامه بناء الذات والارتقاء في مدارج التكامل المعنوي. الامام الحسين ـ سبط الرسول الاعظم ـ الذي ما زالت ترانيم دعائه القدسي يوم عرفه تبهر العقول وتذهل النفوس، وتجعل الانسان في حيرة ودهشة، وتناغم وانسجام بين الروح والمشاعر. والمناجاة العرشية التي تعتبر موروثاً معنوياً قيّماً ونفيساً، وتعد احد مصادر العرفان الاسلامي الفريدة. كيف تسنى له الانفكاك من كل ذلك قلباً وقالباً، والانقطاع عن الحضور والمشاركة في هذه الشعائر المقدسة، والتوجّه الى العراق؟

ما الذي جعل من نهضة الامام الحسين ونهجه طليعياً رائداً؟ انه الدافع الرباني الصادق، والاتصال بعالم المعنى والملكوت. إذ نجده اثناء الطواف لأداء الفريضة الاهم والاصعب، وحيث اللذة المعنوية التي هي أمر مقبول وموافق للعرف؛ وبعبارة أخرى، خيار مصالح الامة وتطلعاتها، حتى الميول الشخصية بما فيها المعنوية. نجده اثناء الطواف يتخطى اللذائذ المعنوية والميول الشخصية، ويمضي دون ادنى تردد في قراره وعزمه واقدامه.. دون اي تردد ازاء تشخيص التكليف ومصالح الامة، وكذلك تجاه ما يؤمن به. لم يحاول التذرع بالتكليف والتشبث بالمصلحة العامة، ومحاولة تبرير إكمال مناسك الحج والحظي بثوابه.

بيد أننا نحن اصحاب الإدعاء، الذين نحاول في كل مرة يعرض علينا منصب أو مقام، بل وحتى مجرد وصول رائحته الى مشامنا، نحاول التذرع بالواجب والتكليف والايثار للقبول بذلك، والترحيب به بكل رغبة وحماس، ونكون على اهبة الاستعداد لبذل المال وانتهاك حرمات الآخرين، أداء لهذا النوع من التكليف.

للتخلص من عطش السلطة والشهرة، كل الايام بالنسبة لنا هي يوم التروية. لأن هذا العطش لا يروى ولا ينتهي. وفرة الماء في يوم واحد لن تروي ولن تغني عنه.

ولكن اذا ما انتابنا الشك والترديد ازاء الاستغناء عن الكرامة، الملذات، الشهرة، والجهاد للذود عن الدين والمعتقد؛ فإننا نمضي في هذا المسار الى الحد الذي نقضي كل الوقت بالاستخارة واستشارة من

نشترك معهم بالمسلك والمنافع، حتى يطرق الاسماع صوت طبول انتهاء المعركة، واعلان نهاية فجر العاشر.

العبد الصالح، العارف المتأله الزاهد والانسان الكامل، العاشق للمناجاة مع ربّ العزة، والمستغرق في الذكر والدعاء، يقف بكل شجاعة ويتخلى عن رغباته وميوله النفعية، ويفكر بما يخدمة مصالح الاسلام والامة وليس منافعه الشخصية، واتخاذ قراره وعقد العزم دون ادنى تردد، والصدح بكلمات خالدة في التاريخ، وحاضرة في كل عصر وزمان: "من كان باذلاً فينَا مهجتَه، وموطِّناً على لِقَاءالله نفسه، فلْيَرْحَل مَعَنا".

وعلى الرغم مما كان ينتظره النفعيون، والزهّاد القشريون، والمرفهون طلاب الدنيا، والاعداء الحاقدون؛ فانه لم يملأ قرابه بالماء لأجل عرفات، بل ولم يلق حتى نظرة اليه، وقرر الالتحاق بمصارع عشاق نينوى.

دعا الجميع الى سقي غرسة الاسلام الفتية ورعاية شجرة العدالة، كي تكون التروية لأجل الهجرة على الدوام، ويكون التحرّك لأجل شجرة الاسلام الباسقة، مخلداً اسمه ونهضته.

وعلى الرغم من وقوف الجميع بوجهه ومحاولة ثنيه عن نهجه ومسيرته، بدءً بالنفعيين وانتهاء بالمتحمسين، المنافسين، طلاب الدنيا والاعداء ؛ غير ان ذلك لم يفت في عضد الامام الهمام ولن يثنيه عن توجهاته واهدافه الربانية السامية.

حاولوا تخويفه من الموت، ومن تشريد أهل بيته ! فردّ عليهم لافتاً الى ايمانه بطريقه ونهجه : أبالموت تخوفني؟ " فيا سيوف خذيني ".

كان عزمه وارادته تستند الى مكان آخر. وما اراده واصرّ عليه عين ما كان يريده "هو"، حيث قدره وارادته.

ولهذا يوم التروية هو يوم العزم والارادة الايمانية والربانية في تخطي المنافع الشخصية واللذائذ المعنوية لأجل أمر هام وحياتي، وإن كان أمر في غاية الصعوبة وباهض التكلفة، حيث الدفاع عن دين الله وصيانة مصالح الامة والعمل بالتكليف، الذي اضحى خالداً في الوجود والتاريخ. الاسلام والتحرر أخذت منه الحياة وبقي خالداً. فهو لم يفكر بغير التكليف ومسؤوليته التاريخية والالهية، ولم يرغير ذلك ولن يريده. وكم هو جميل ودقيق ما قاله شيخ عارف: " سيد الشهداء اوضح التكليف لنا جميعاً ".

بالنسبة لي يعتبر يوم الثامن من ذي الحجة، ملازماً لشعور غريب وقلق واضطراب على الدوام. إذ كثيراً ما كنت اتساءل لو أننا واجهنا مثل هذا الموقف ماذا كنّا سنفعل؟ هل سنكون بهذا القدر من الاطمئنان لإتخاذ قرار صائب، وأدركنا تكليفنا بشكل سليم؟ ونعمل ونتحرك وفقاً لما يقتضيه الواجب؟ أم نتخذ من العمل بالظواهر والفرائض ذريعة للهروب من المسؤولية الاولى والحقيقية ؟

لابد من تفويض الأمر الى الله وندعو لأن يمنّ علينا بالمعرفة، والشعور، والارادة، والعزم، والشجاعة اللازمة لإتخاذ القرار الصائب والاقدام في الوقت المناسب.

وا أسفا من التشخيص غير السليم والقرار الخاطىء. ونعوذ بالله من التوجهات النفعية والانانية المقرونة بذرائع ومبررات مخادعة.

إن الحج مظهر للمساواة

ورمز لالغاء كل الوان التمايز بشتى الوان

التمايز بين عباد الله، وبهذا الخصوص قال الشيخ المرجع

والمفسر الكبير **اية الله الشيخ مكارم الشيرازي:**

إن مناسك الحج وطقوسه من جملة العبادات الجماعية المشتركة يبدأها الانسان بتجرد كامل وتنزه عن كل شئ سوى ما يلبس من ملابس الاحرام البسيطة جدا، وتلك المراسم تدل على المساواة بين خلق الله وعباده في حضرته، ومعلوم أن المساواة والغاء الفوارق الطبيعية هي أمل وطموح البشر بأن يأتي اليوم الذي تتحقق فيه العدالة بين الناس وتتلاشي فيه كل الوان التمييز والاختلاف بين الوان البشر وعناصرهم من قبيل الشكل والثروة والعرق واللغة ونحو ذلك، فيتساوى الجميع ويتشابهون في الوقوف بين يدي الله ويذعن الانسان أن جميع البشر سواسيه عند الله جل شأنه.